الميزان الحسابي للقوى وادارة الصراع

من الصعب الادعاء بأن موازين القوى، من الناحية الحسابية، بين العرب واسرائيل هي التي حدّدت مسار الصراع العربي ـ الاسرائيلي على أرض الواقع حتى الآن، وانما الذي حدّد مسار هذا الصراع هو أسلوب طرفيه في ادارته. فقد نجحت اسرائيل في فرض استراتيجيتها وتكتيكاتها الخاصة على الدول العربية، وتبنّت أسلوباً مرناً يتمشى مع تطوّر امكاناتها الذاتية، واستطاعت وضع العرب، دائماً، في موقف ردّ الفعل وليس الفعل أو القابض على زمام المبادرة.

لم تتخل الحركة الصهيونية، مطلقاً، عن هدفها الاستراتيجي الرامي الى انشاء دولة اسرائيل الكبرى في المنطقة في أي يوم من الايام. ومع ذلك، اعتمدت هذه الحركة وعملت وفقاً لخطط وأهداف مرحلية محسوبة تطوّرت وفقاً لتطوّر قواها الذاتية ومدى قدرتها على فرض الأمر الواقع. فقد قبلت الحركة صيغة «الوطن القومي» حتى عندما كانت هذه الصيغة غامضة ولا تشكّل التزاماً قاطعاً بانشاء دولة يهودية مستقلة. ثم وافقت على مشروع التقسيم الذي أقرّته الجمعية العامة بالرغم من انه لم يكن يلبي كل أهداف الحركة. واستطاعت اسرائيل في حرب العام ١٩٤٨ أن تضيف الى الدولة اليهودية أراض جديدة أوسع بكثير من تلك التي تضمّنها مشروع التقسيم. وفي العام ١٩٦٧، استكملت احتلال بقية فلسطين بالاضافة الى أجزاء أخرى من أراضٍ عربية مجاورة لمقايضة بعضها، مستقبلاً، في مقابل تسوية بالشروط الاسرائيلية. واستطاعت، في العام ١٩٧٨، اخراج مصر من معادلة الصراع، في شقه العسكري على الاقل، في مقابل اعادة سيناء الى السيادة المصرية، وهكذا.

لقد توصلت اسرائيل الى هذه النتائج الباهرة على الرغم من ان ميزان القوى بين العرب واسرائيل، حتى على الصعيد العسكري، لم يكن يميل، بالضرورة، بشكل حاسم لصالح اسرائيل. فالهزيمة العربية في العام ١٩٤٨ وفي العام ١٩٦٧ تعود الى أخطاء عربية على الصعيدين السياسي والعسكري بأكثر ممّا تعود الى التفوّق الاسرائيلي. ونتائج حرب العام ١٩٧٣ لا تبرر سياسياً أو عسكرياً منهج الرئيس المصري أنور السادات في ادارة الصراع مع اسرائيل خلال الفترة اللاحقة. بل ان نجاح كل من مصر وسوريا في شن الحرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ وتحقيق انتصارات هائلة في بداية الحرب بالرغم من ميل الميزان العسكري، في ذلك الوقت، لصالح اسرائيل، يعد، في حدّ ذاته، دليلاً على ان الميزان الحسابي للقوى، وخاصة القوة العسكرية، ليس هو العامل الحاسم في تحديد مسار الصراع، وهكذا.

وبالطبع، ليس نموذج الصراع العربي ـ الاسرائيلي هو النموذج الوحيد للصراعات الدولية التي لا تستجيب في تطوّرها، بالضرورة، لموازين القوى بين أطرافها وموازين القوة العسكرية خاصة. فتاريخ العلاقات الدولية مليء بنماذج أخرى. وربما كانت نماذج حروب التحرير الوطنية في العصر الحديث هي أهم نماذج الصراعات التي تمّ حسمها لصالح حركة التحرر الوطني، في مواجهة قوى دولية تتفوّق عليها، تماماً، من الناحية العسكرية. فقد هزمت فرنسا في حربها ضد حركة التحرير الوطني بالجزائر. وهزمت فرنسا، أيضاً، ثم الولايات المتحدة الاميركية في حربهما ضد حركة التحرير الفيتنامية. وربما كان نموذج الحرب الفيتنامية ـ الاميركية هو أوضح نموذج على ان حسم الصراعات يتوقف، أولاً وأخيراً، على أسلوب ادارتها، والقدرة على توظيف كل عناصر القوة والتأثير، وعلى مدى صلابة الارادة السياسية والاستعداد للنضال والتضحية بصرف النظر عن الخلل، والذي قد يكون رهيباً أحياناً، في موازين القوة العسكرية. وقد ارتكز النضال الفيتنامي في الحرب ضد الولايات المتحدة الاميركية